في هذه الزّاوية، تفتح «الآداب» نفسها على ذاكرتها، فتعود إلى ماضيها، تكشف مفارقه، وعلاماته المضيئة، وهناته، وملامحه، وآماله، وإحباطاته. وإذ تعود إلى ذلك الماضي، فإنّها تسعى إلى وصل أجزائها، بالاغتناء من تجاربها، دون أن يعني هذا بالضّرورة إيثارَ ما سلف منها على ما خلف، ولا جلْد ذاتِها على ما قصّرتْ في القيام به أربعين عاماً أو تزيد.

إنّ ذاكرة «الآداب» ليست إلاّ ذكريات جيل عربيّ على مشارف القرن الحادي والعشرين، يكشف أيّامه الماضية ـ بما فيها من عزيمة وشباب وأحلام وجموح ونجاح وإخفاق ـ على خلفه أو مجايليه الجدد. وقد يُعلّق صاحب المجلّة أو مدير التحرير أو طرف ثالث على بعض ما جاء فيها، نقداً أو نقضاً أو تثميناً أو إضاءة. وسوف ترصد «الذّاكرة» أهمّ القصائد، أو المقالات، أو القصص القصيرة، أو الأبحاث النّقديّة، أو التّمثيليّات القصيرة، أو النّصوص الشّاعريّة، التي كان لها وقعٌ في السّاحة الثّقافيّة العربيّة آنذاك، أو صار لها مثل هذا الوقع اليوم.

قبل سبعة وعشرين عاماً، نشر أدونيس عقب هزيمة حزيران «بيان الخامس من حزيران ١٩٦٧». وإنّه ليحسن بالقارئ اليوم أن يقرأ هذا البيان في ضوء خلفيّات عدّة: سياسيّة، وأدبيّة، وحضاريّة. فالمعلوم أنّ كثيراً من المثقفين والطلاّب قد رفضوا الذرائع التي قدّمتها الأنظمة العربيّة للهزيمة الكاسحة التي مُنيت بها آنذاك. لم يكتفِ أولئك المثقّفون بالتّصديق على قول عبد النّاصر «انتظرنا الأعداء من الشّمال والشّرق فأتونا من الغرب»، ولا بالإيمان بأنّ هزيمة ٦٧ كانت محض «نكسة» سوف تخلّف انتفاضةً من تحت الرّكام. ولم يتفاعل طلاّب مصر آنذاك بالمحاكمة «اللّطيفة» الّتي خضع لها بعض قادة سلاح الطّيران المسؤولين عن جزء هام من الهزيمة؛ فانتفضوا عام ٦٨ وطالبوا بمحاكمة أولئك القادة، كما طالبوا بإخراج العسكر من الجامعات، وبالإفراج عن الطلاّب المعتقلين، وبإشاعة الدّيموقراطيّة في الجامعات.

وشهدت الشّهور والأعوام القليلة الّتي تلت الهزيمة فورة من الكتابات والمسرحيات والقصائد النّقديّة. فكتب صادق جلال العظم **النقد الذّاتي بعد الهزيمة** (١٩٦٨)، فتعرّض لضعف الجندي العربي ليخلص إلى نقد الإنسان العربي في أنماط تفكيره ونُظُم عيْشه؛ فالعربي ـ في رأيه ـ يقلّد الغرب والثّورة، ويهرب من المسؤوليّة، رامياً إيّاها على كاهل الاتّحاد السّوفياتي أو «المؤامرة الشّرسة»، أو رادّاً إيّاها إلى مشيئة القدر؛ والمجتمع العربي قد عجز عن بناء المؤسّسات المدنيّة القادرة على تحقيق حلم الدّيموقراطيّة والتّغيير.

واتّجه محمّد جلال كشك في **النكسة والغزو الفكري** (١٩٦٩) وجهة أخرى، فانتقد القوميّة العلمانيّة الّتي رأى أنّها في أساس الهزيمة الّتي مُني بها العرب ودعا إلى سلفيّة دينيّة إسلاميّة. وتدفّقت المسرحيّات العربيّة لعلي سالم (**أغنية على الممرّ، كوميديا أوديب**)، وسعد الدّين وهبة (**المسامير، وسكّة السّلامة**)، ويوسف ادريس (**المخطّطين**)، ومحمود دياب (**باب الفتوح**). وتصدّت كتابات أخرى للحياة العربيّة في مختلف جوانبها، فتعرّضت للإسلام، وللّغة العربيّة ـ حين تكون نظاماً عقيماً في الفعل، يهدف إلى ذاته ولا يكون تعبيراً عن أهداف أخرى ـ ولقدرة الإنسان العربي على أن يكون ذاته من غير أن يعزل نفسه عن الحضارة العالميّة.

ويندرج «بيان» أدونيس في إطار ذلك النّقد العامّ للحياة العربيّة. فينتقد تقليد العرب للغرب تقليداً سطحيّاً، وينتقد مفهوم القوميّة حين تُغلق ذاتها عن مجاراة الفكر العالمي؛ وينتقد عبادة الفرد وعبادة الحزب، وتحالُفَ المثقّف العربي والسّلطة على حساب الثّقافة وخدمة للآنيّ الرّاهن وحده. ويخلص إلى التّشديد على دور الشّعر في عمليّة التّغيير، لكونه «خرقاً للعادة» و«إبداعاً» و«مخاطرة».

الآداب

ذاكـــــرة الآداب ـ ٤٠ ـ

بيان ٥ حزيران ١٩٦٧ — أدونيس

من أنا؟ هل أعرف نفسي؟ دخل غيري عصرَ الكهرباء والآلة والالكترون والذرّة. يصلون إلى القمر. يفتحون صفحة جديدة في سفر التكوين الإنسانيّ. سرت قليلاً، تعلّمت قليلاً. أمتلكُ ثروة كالبحر، وأنا الآن واضع يدي على أرض يجري فيها الذهب أنهاراً. حاولت أن أخرج من بدائيّتي الزراعيّة إلى عالم الصناعة والآلة. حاولت أن أدخل عالم الفكر.

لكن هل أستخدمُ السيّارةَ حقّاً أم أنّني استخدمُ فرساً من حديد؟ هل أقود الطائرةَ حقّاً، أم أنّني أقودُ «إحدى أعاجيب الفضاء» ـ شيئاً غريباً «نصفه طير ونصف بشر»؟ هل تعلّمت الهندسة حقّاً، أم أنّني أخذتُ شهادة تزيّنْتُ بها كالوسام؟ هل أستخدمُ الطاقة الكهربائيّة، أم أنّي استخدم شموعاً من الزجاج ومصابيح تشتعل بلا زيت؟ هل أنّ سيري تقدّم حقّاً، أم أنّه صخب ورايات؟ هل الدولة التي أبنيها نظام حقّاً، أم هي قبيلة ثانية؟ هل ما أسمّيه نهضة أو ثورة أو انقلاباً، نهضة أو ثورة أو انقلاب بالفعل؟

الفكر العظيم، وحده، يصنع القضايا العظيمة. هل أنا في حياة لا تعرف الفكر العظيم، وليس لها، إذن، قضيّة عظيمة؟ لا تستطيع إذن أن تقوم بأيّ عمل عظيم؟

وإنْ قلت إنّني مفكّر، أتساءل أين أنا موجود وكيف؟ أين مجال تأثيريّ وفعلي، وأيّة سلطة لي، وما هي القيم التي أنشأتها، أو دافعتُ عنها، أو حميتها؟ الحريّة، الحقيقة، المحبّة؟ حريّة البحث عن الحريّة والحقيقة والمحبّة؟ هل دافعت عن الفكر عند **كلّ** مفكّر، أم عن أفكاري **أنا وحدي**؟ هل اضطُهدتُ أو سُجنت أو استشهدت من أجلِ إقامة الفكر وحقّ الفكر في الحوار بين الأطراف، أم أخوّن كل فكر غير فكري وأنفيه؟ وإنْ كنت أخوّنُ كلّ فكر في وطني غير فكري، أفلا يعني هذا أنّي جزء من وطن خائن بمعنى ما، ومن شعب خائن بمعنى ما، وأنّني قابل جاهز، كل لحظة، لأن أكون، بدوري، خائناً؟ وحين خوّنتُ غيري هل كنت أميناً، وهل كنته بقوّة الحقيقة أم بقوّة الشعب أم بقوّة السيف؟ وبأيّ أسلوب حكمتُ على غيري: بالحوار والإقناع، أم بالخنجر والرصاصة؟ وما هو مقياسي في الحكم عليه؟ وهل السلطة التي حكمتُ بها عليه سلطة السجن أم سلطة العقل؟ وحين نفيته ماذا أثبتُّ؟ وحين قلت إنّه طاقة هدم وسلب فهل كنت أنا طاقة إيجاب وبناء؟

هل أنا شخص آخر؟ هل يحيا فيَّ أسلافي الذين ابتكروا الأبجديّة، وقرأوا البحر، ومدّوا قوس حضارة تتلألأ بين سمرقند وغرناطة، أم الخصيُّ القهرمان المملوك هو من يحيا؟ هل أنا في يقظة حقّاً، أم في وهم اليقظة وأحلامها. . . في انحطاط خصيب أخضر؟

هل أنا إنسان **كان**، لا إنسانٌ **يكون**؟ اكتمل منذ ولادته. . الزمن ليس مجالاً لتحوّله أو لصيرورته، بل هو وسيلة لاستعادة كماله؟ ولأنّه المستعيد أبداً، يحوّل نظره عن الواقع. يؤوّله مثاليّاً: الفقر، مثلاً، امتحان للنفس، لا خنق للإنسان؛ الانكسار نكسة لا هزيمة؛ ليس العدو المباشر هو من يغلبني، بل يغلبني العدو الآخر، غير المباشر، المستتر.

هل أنا فكرٌ لا يُعنى بالموضوع، وإنّما يُعنى بعلاقته الشخصيّة مع هذا الموضوع؟ لا يرى من الأشياء والموضوعات إلاّ التماعاتها وجوانبها. فكر ينتزه، لا فكر يبحث. يحوّل الأشياء إلى انفعالات وانطباعات، لا إلى قضايا. كلّ شيء يصير نسبيّاً، جزئيّاً: الحقيقة هي التي يعلنها هذا الفرد أو ذاك، وما عداها باطل. الحريّة هي هذه لا تلك، وما عداها الفوضى أو ما يشبهها. والحقّ هو أنا لا هو. هو يصير حقّاً حين يفنى في ما أريده.

هل أعيش في نسيج زمانيّ خالص، في معزل عن الأرض؟ هل المكان عندي جسر، هل هو اصطلاح لفظيّ وحسب؟ هل الأرض عندي لكي أزرعها واستمتع بخيراتها وحسب، وليست جزءاً حيّاً من جسدي، وبعداً من أبعاده؟ هل الأرض بالنسبة إليّ متساوية، ولهذا أحبّ الهجرة وأتأقلم حيث أكون وأذوب؟ هل الأرض فرس ثانية أمتطيها في طريقي نحو الآخرة؟ هل حين أدافع عن المكان الذي أسكنه أدافع حقّاً عن الأرض، أم عن ملكي على هذه الأرض؟ هل أعتبر الأرض كالملك: يتبدّل، ينقص، يزيد. . . يتضمّن إمكان أن يزول ـ يتضمّن، لذلك، إمكان التخلّي عنه؟

* * *

هل أنا نموذج «المهاجر»؟ لا تهمّه الأرض، بل يهمّه أن يظلّ في هجرة؟ الأرض التي يحبّها هي الأرض التي تطيب له، لا التي ولد فيها، بالضرورة؟ ثمّة سهولة عندي في أن أترك بيتي. . كأنّني مستعدٌّ أن أموت في سبيل فكرة ما، لا في سبيل أرض ما. كأنّني كائن في اللوغوس، في الكلمة، لا في الطبيعة.

هل أنا نموذج تراجيدي من نوع فريد؟ ليست الأرض لي مستقرّاً، بل ممرّ. أحبّ المندفعين معي من الماضي. أكره الأنين من المستقبل، ومن المجهول. أحارب لأسترجع حريّة مروري على الأرض، لا الأرض ذاتها. ليس وطني هنا الآن ـ بل الآخرة التي تلتقي بالماضي في مكان آخر من نوع غير أرضي.

هل أنا شخص ينظر إلى الشعب نظرته إلى الأرض؟ الشعب كالأرض ممرّ هجرة. أحارب لا لأنقذه، بل لأنقذ سيادتي فيه وعليه. الشعب قناع لي، لباس، سلاح. يتغيّر لون القناع، يتمزّق الثوب، يتكسّر السلاح: كذلك الشعب. يهمّني أن أبقى متسلّحاً، مقنّعاً، لابساً بشكل أو آخر.

أنا قيمة ثابتة والشعب قيمة متحوّلة. أنا الأصل وهو الظلّ. ألذلك أتأرجح بين قطبين: ملك وشحّاذ، طاغية وسجين، نبيّ ودجّال؟ أنا فوق الإنسان ودونه في آن. العالم، لذلك، فوق طاقتي ودونها في آن. كأنّني أحيا خارج العالم.

***

أنا، طارحَ هذه الأسئلة، هو الإنسان العربي، العائش اليوم، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين. بهذه الأسئلة (يمكن طرح اسئلة كثيرة غيرها) أحاول أن أعيد النظر: فيَّ، في هذا الإنسان، قبل إعادة النظر في الحياة العربيّة. فليست المسألة أن تتغيّر هذه الحياة، أي المجتمع ومؤسّساته، بقدر ما هي أن يتغيّر الإنسان العربيّ. من هنا وحسب، تبدأ أهميّة العلم والتقنيّة وتغيير الحياة العربيّة.

إنّنا نعيش النتائج الفاجعة لانجرافنا، طَوال السنوات الخمسين الأخيرة، وراء التغيرات من خارج، وإهمال الإنسان من داخل. فالحياة العربيّة تنقل، على نحو سريع، الأشكالَ المدنيّة، الأوروبيّة والأميركيّة، وتمارس وسائلَ العلم التطبيقيّة صناعة وزراعة وعيشاً يوميّاً. لكنَّ الإنسان باق لم يتغيّر. يبدو، في تزاحم تلك الوسائل والأشكال، مأخوذاً مبهوراً. يظنّ أنّه يستعيض بالكمّ عن الكيف، وبالشكل عن الجوهر. شخصيّته من داخل ماتزال كما كانت منذ خمسة عشر قرناً. كأنّه أثر تاريخي من القرن الخامس، يلبس شكل الإنسان، يأكل، ينام، يتحرّك، بمعجزة ما، في القرن العشرين.

يستخدم الثياب التي يخلعها العالم في مسيرته الإبداعيّة ـ ثياب العرق والتعب والكشوف والتغيير. ويظنّ العربي، إذ يستخدم هذه الثياب، أنّه يتساوى مع العالم المبدع. ولئن أتاحت له أن يجتاز ما بينها من مسافة الشكل، فإنّها لا تتيح له اجتياز مسافة الجوهر... مسافة الحضارة.

هكذا لا يبدو العربي غريباً عن نفسه وحسب، وإنّما يبدو إلى ذلك غريباً عن العالم. إنّه وجود مؤجّل. وفيما هو يستمرّ ناقلاً مقلّداً، يبدو غصناً مصطنعاً في شجرة الحضارة المعاصرة... بثمار مصطنعة يؤتى بها من هنا وهناك وتُلصق عليه. ويراد لها، في أحيان كثيرة، التصديق بأنها طبيعيّة تتدلّى من غصن طبيعي. إنّ بين العربي كإنسان، والعربي كحياة يوميّة، مسافةً طويلة، يملؤها الفراغ والتمزّق والتفتُّت. إنّ العربي المعاصر يحيا في كيانيْن: ذاته المُغرقة في السلفيّة، وحياته المتهالكة على أشكال المدنيّة الحديثة.

يدرس الفيزياء والكيمياء والذرّة والبيولوجيا والرياضيّات، لكن معنى هذه الدراسة لا يتجاوز كتابةُ ورأسه وذاكرته. يبقى في أعماقه، في جوهر حضوره الإنسانيّ، في معزل عن هذه العلوم، من حيث أنّها كشوفٌ ومبادئُ وقوانين تُعيد خلق الحياة والعالم.

إنه يتبنّى التقدّم نظريّاً، ويحيا عمليّاً في الإطار السلفيّ التقليدي. إنّه يقدّس الحريّة بشفتيْه، وحسب. يساريّ بفكره وفي الظروف العاديّة، لكنّه في الظروف المصيريّة الحاسمة، وأحياناً في الظروف العاديّة نفسها يمينيّ بسلوكه وحياته. يريد أن يصنع التاريخ فيما هو يهرب منه. يودّ أن يحارب فيما هو يسعى للتخلّص من الحرب. إنّه في آن قائد وتابع، صيّاد وفريسة، شجاع وجبان، شيوعيّ وبورجوازيّ، شرقيّ وغربيّ. إنّه جهاز استيعاب. ينقل العالم دون أن يحوّله أو يصهره في ذاته. الثقافة بالنسبة إليه كَسْبٌ يحفظه في وعاء الذاكرة، لا معرفة تتداخل في كيانه وحياته. ليس حضوره في الزمان تآلفاً وتركيباً. وإنّما هو حضور فرديّ، منعزل، كالمسمار والحصاة. كأنّه ليس موجوداً إلاّ على مستوى الحسّ والشيء.

***

الإنسان العربي الثّوري يخسر الواقع، فيما هو يزداد تشبُّثاً بالنّظريّة. يهمل الإنسان ويتمسّك بالعقيدة. يحتقر المواطن ويمجّد المرتزق. إنّ ثمّة مشكلة حقيقيّة يواجهها الثّوري العربي قد لا يكون لها مثيل في تاريخ الإنسان: لم تعد المسألة أن يقنع المواطن بعقيدة أو نظام أو مبدأ. المسألة اليوم هي أن يقنع المواطن بأنّ له وطناً.

هذا العربي الثوري ينتقد، يهدم، يدين، يحكم باسم الثورة. لكنّه، فيما ينشط، يمارس سلطانه على الكلمات، لا على الواقع. يغيّر تشكيلة الكلمات في النطق، في الجملة، فيخيّل إليه أنّه يغيّر تشكيلة الحياة.

***

والإنسان العربي المفكّر، شاعراً ورسّاماً وموسيقيّاً وفيلسوفاً وكاتباً ومربّياً، خَلقَ في السنوات العشرين الأخيرة حياة بابليّة بامتياز. جعل من أجيالنا آلات استذلّها لنير التقليد الغربي، أو لنير التقليد الرجعي، أو لنير الجهالة. ساعَدَ، سلباً أو إيجاباً، بالصمت أو بالكلام، على أن يكون الشعبُ وثرواتهُ وتراثهُ في خدمة الحاكم ونظامه. شارك في جعل الحزب أعلى من الوطن والشعب، وفي جعل العقيدة أسمى من الحقيقة والإنسان. حَوّل المدارس إلى خلايا ببغاوات تزدرد وتصوّت وتمومئ. حوّل الجامعات إلى مصاهر تقلب الأميّين وأنصاف الأميّين إلى عباقرة وقادة شعوب. جعل من الكتاب

جثّة ومن الكلمة مومياء.

التسويغ، الصمت، العزلة، الاستسلام لعصا الحاكم، ـ هذه مظاهر يحفل بها الفكر العربي المعاصر. وهي تتضمّن تواطؤاً على الحقيقة والفكر والحرّية، أو مشاركة في التواطؤ أو تغاضياً عنه. قلّما وقف، طَوال السنوات العشرين الأخيرة، تمرّداً على طاغية، أو انتصاراً لمضطهد أو مسجون أو محروم. حتّى الانتصار للحريّة كحريّة، للعدالة كعدالة، للحقيقة كحقيقة، لم يكن يجمع بين ممثّليه. كانوا دون مستوى العدالة والحقيقة والحريّة. كانوا ينخرون الإنسان نفسَه والشعبَ نفسَه والوطنَ نفسَه، فيما ينخرون شجرةَ الحريّة.

* * *

هذا الشبح الذي أُسمِّيه الفكر العربي المعاصر، أتّهمه ـ وأنا جزء منه ـ بأنّه عاجز جاهل. لا يعرف أحداً، لا العربي ولا غير العربي. لا يقدر أن يطول أحداً، لا العربي ولا غير العربي. أتّهمُ بأنه تابع ومسحوق.

ثمّة مفكِّرون لا يتجاسرون على الجهر بإيمانهم، لا يتجاسرون على التلفّظ بالحقيقة والشهادة للحقّ. ثمّة مفكِّرون أصغر من كبر الاعتراف بالخطأ حين يخطئون، ومن تغيير آرائهم وأفكارهم حين تثبت لهم الحياةُ والتجربة بطلانها. ثمّة مفكِّرون يؤثِرون أن يملكوا دكاناً على أن يملكوا مكتبة. ثمّة مفكِّرون يدعمون الطاغية الذي يضطهد مفكِّرين آخرين. ثمّة مفكِّرون يتكدّسون كالهشيم. ثمّة مفكِّرون موتى وهمْ يتحرّكون: ضيّقون، منغلقون. المصلحة عندهم قبل الحقيقة، والسلامة قبل الحريّة.

الفكر هو الكلمة ـ الفعل، وهو كذلك أن تكون الكلمة ـ الفعل في البدء. وإلى أن يولد الفكر حقّاً، ويولد من يفكِّر حقّاً، ستبقى الحياة العربيّة تبدو كتلاً ضخمة من أجساد تتحرَّك، تتقدَّم، تتأخَّر، تصطرع، تتجمَّع.. لكنها تبقى في نظام التكتيل لا نظام التكوين، في نظام الموتى لا نظام الأحياء. وسيبقى المفكِّرون قطعاً من الخشب اليابس في نهر التاريخ: تتكوَّم في المنعطفات وعلى الضفاف؛ هي في النهر وخارج النهر؛ هي على الشاطئ وفي اللجّة؛ لكنها ليست الماء في أيّ حال، وليست المصبَّ ولا النبع.

* * *

والإنسان العربيّ السياسيّ؟ لقد بذِّر في السنوات الخمسين الأخيرة ثرواتٍ تكفي لأن تمحو من البلاد العربيّة الأميّةَ والمرض، وتفتح الطرق الحديثة، وتؤسِّس الجامعات والمعاهد التقنيّة، وتنشئ مشاريع الإنتاج والعمل والتصنيع، وتجعل من كلّ قرية نواة تقدّم، ومن كل بيت حصناً علميّاً.

إنّ من يريد أن يحكم عليه بصدق لا يستطيع إلّا أن يصرخ في وجهه: «أيّها السيّد، إنّك تغشّ نفسك، وتغشّ بلادَك، وتغشّ فيها الإنسان، وتغشّ الأرض».

ولا يستطيع، من ثمّ، إلّا أن يقول له: «لقد ضيّعت، أيّها السيّد، خلال ذلك، زمنَ الفرد العربيّ. جمّدْتَهُ في مستنقعات القرون الوسطى وما قبلها، وأقمتَ سدّاً بينه وبين الحضارة، بينه وبين شمس المستقبل. ولئن كان ذلك الفرد ما يزال يتململ وينبض، في رماده، بشكل معجز، فلأنّه، في أساسه، خميرة قد يندر مثيلها»!

ثمّ يقول له: «أيّها السيّد، لن نسمح لك بعد اليوم أن تُفسد هذه الخميرة».

ذلك ما ينبغي على المفكِّر العربي أن يوقن به، ويعلنه، ويرهن به وجوده. لكن هذا ليس هيِّناً. لقد تحالف رجلُ السياسة مع رجل المال لإبادة الفكر، ولتحويل المفكِّر إلى موظَّف. وأصبح المفكِّر يعيش، بشكل أو بآخر، تحت رحمة رجل السياسة أو رجل المال. وشيئاً فشيئاً، أخذ يتنازل عن دوره في البحث عن الحقيقة، وإعادة النظر، وقول الحقّ، والتمسُّك المطلق بالحريّة، ويتبنّى منطقها في البحث عن المفيد المناسب، وتسويغ كلّ شيء بحجّة الظرف والحالة، والتغاضي عن الظلم وتجاهل الحقّ بحجّة الهدوء والاستقرار، والتنازل أخيراً عن الحريّة، لأن الحريّة في أوضاع فاسدة تبدو، بالطبع، فوضى وتهديماً وتخريباً، ويبدو جميع من يمارسونها أو يدْعُون إليها عناصرَ هدّامة مخرِّبة.

هكذا تسقط الحياة العربيّة ومقوّماتها وطاقاتها أسيرة في أيدي ذوي السلطة، من رجال السياسة والمال. أمّا الفكر فيصبح دُمية. ويصبح رجال الفكر آلاتٍ تقوم بوظائفها في المجتمع الذي تبنيه السياسة والمال. وأمّا السياسة، فلا تعود وسيلة، وإنّما تصبح الغاية المطلقة: تصبح، جوهريّاً، السيطرة والحكم. هكذا تنحرف وتنحطّ. لا تعود حلبةً تتنافس فيها رؤى البناء والنهوض والعمل لمستقبل إنسانيّ أفضل، وإنّما تصبح حلبةَ مغامرات. ولا يعود هناك ما يمنع من أن يصبح الأمّي مُشترعاً، والجبانُ قائداً، والجاهل الغبي راسماً طريق المستقبل.

ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى المفكِّر العربي الذي يريد أن يبقى مفكِّراً؟ يعني أنَّ عليه أن يقوم بثورة تعيد للفكر دورَه وللمفكِّر مكانتَه ومهمّتَه، فتقلب الأسس التي تقوم عليها الحياة العربيّة اليوم. ومن الأعمال المباشرة لهذه الثورة أن يقف المفكِّر العربي بروح الرجولة والحقيقة، فلا يترك للسياسة ـ هذا الجزء ـ أن تصبحَ الكلّ،

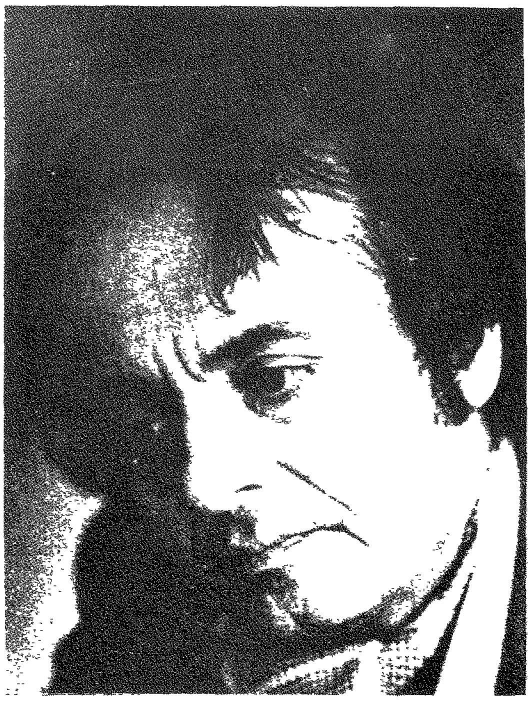

وأن تلتهمَ كلّ ما يحول بينها وبين أن تصبح الكلّ. إنّ مهمّته الأوّليّة الملحّة هي أن يجعل من السياسة وسيلةً لا غـاية: هي أن يخضعهـا للفكر وسلطانه، أعني الفكر النقيّ المتجوهر في أتون الالتـزام بقضيّة الإنسان. فالسياسة العظيمة هي الفكر العظيم. ويستحيل أن يكون السياسي عظيماً إذا لم يكن مفكّراً عظيماً.

***

هنـاك أَماراتٌ ثـلاث تشهـد لتغيّر الإنسـان العـربي: الحـريّـة، الخلق ـ الفعل، خرق العادة. هذه الأمارات هي، في الوقت نفسه، ممارسات ومعـانيات داخـلَ الإنسان في أعـماقه، وخـارجَه في الحيـاة والواقع والمجتمع. ثمّ إنّها وحدة متكاملة. وهو لا يتغيّر إلّا بقدر مـا يعانيها ويمارسها ويحياها ويسلك بمقتضاها.

١ ـ ليبدأ، إذن، المفكّر العربي، بأن يستردَّ جوهـرَه الذي سلبتـه إيّاه السياسة: الحريّة. كلّ ما يقوم به، إذا لم ينطلق من الحـريّة، لا يكون إلّا شكلاً من أشكـال الوظيفـة ـ العبوديّـة. إنّ غياب الحـريّة يجعل الحياة نسيجاً هائلاً من الكذب والنفاق. وحيث يسود الكذب والنفاق، لا يعود الإنسان إلّا قناعاً. إنّ عالم الأقنعة هو عالمنا اليوم. إنّ ثمّة جسوراً منسوفة بين المفكّر العربي ونفسه، بينه وبين الحقيقة، بينه وبين الحريّة؛ فليبدأ ببناء هذه الجسور. وبقدر ما يصمد في هذا البناء ستتفتّح الحياة العربيّة وتنمو في اتّجاه أصيل، جذريّ، خلّاق. وعليه، فيما هو يبني، أن يدرك أنّ ما حوله يناهضه؛ إنّه بادئٌ من لا شيء؛ إنّ حياته نفسها قد تكون بعض التضحيات التي يقدّمها.

إنّ عليـه أن يبـدأ فيكـون رائـداً لا تـابعـاً. إنّ عليـه أن يشهـد للحقيقة والحريّة حتى الاستشهاد.

الحـريّة التي أعنيهـا ليست حـريّـة وحيـدة الـطرف، حـريّتي أنـا وحدي، أو حريّته هو وحده، وحسب. إنّها، كذلك، حريّـة الآخر الذي يخالفني أو يناقضني.

الحيـاة؟ ليس لي حياة إنْ لم يكن لي مـا يناقضهـا. أرفضها حـين تصير سكّةً عموميّة؛ حـين تكون خيـطاً واحداً بلون واحـد، صوتـاً واحـداً بنبرة واحـدة. أرفض الحياة أن لم يكن فيهـا مـا يعـارضني، وينهض في وجهي، ويثـيرني، ويكشفني، ويستحثّني. أرفض الحيـاةَ المستنقع، الحياةَ الـزريبة، الحيـاة القطيـع. أرفض الحياة إن لم تكن سنفونيّةَ أصـوات تصل بـين الأطراف، تجمـع بين الشيء ونقيضـه، وبين النقيض وما يتجاوزه.

النقيض يُحييني: يـتركني في يقـظة دائمـة، يـدلّ عـلى أخـطائي، يـدفعني لكي أكـون أكـثر كمـالاً. لكي أتجـاوز نفسي. إنّـه ضـوئي الآخر.

حين يجابهني الفكرُ الضعيف يزداد يقيني بفكـري القويّ. وحـين يتصـدّى لي الفكر القـويّ اكتشف مقـدار عجـزي وأعمـل عـلى أن أكون ذا فكر أقوى. وحين ينهض شخص يعارض اتّجاهي ومـوقفي وأفكاري، أعرف كم أنا راسخ، وأعرف بالتالي مقدار ما ينبغي عليَّ فعله لكي أكون أكثر رسوخاً.

ومثل هذا الشخص أبحث عنه. وأدافع عن وجوده، لأنّه جـزء من وجودي أنا، ولأنّني بغيره ناقصُ الوجود. إنّنا حين نقبـل، لحظة واحدة، أن يكون هناك شخص واحد لا يحيا الحريّة، وحين لا نثور في وجه من يضيّق أفقَ الحريّة، أيّاً كانت الحجّة والمناسبة واللّحـظة، وحـين نغفل لحـظة واحدة عن حـراسة الحـريّـة. . . حينـذاك تصبح الحياة صحراء للشوك والقشّ واليباس والموت، ونصبح نحن أنفسنـا أوّلَ من ييبس ويموت.

لكن، ألّا نسكت جميعنـا، كلّ يـوم، عـلى انتهـاك الحـريّـة؟ ألّا يشارك كلٌّ منّا، كلّ يوم، في خنق الحريّـة؟ السنا جميعاً نخدم، إلى حدٍّ، ملكاً واحداً هو العبوديّة ـ العبوديّة لشيء ما، لمصلحة ما، لفكرة ما، لتاريخ ما، لرأي ما، لموقف ما؟ ألا يثبت كلٌّ منّا، كلّ يوم، أنّه ليس في مستوى الحريّة؟

ثمّة أيدٍ سحريّة تتسلّل بيننا وبين ثيـابنا، تحملنـا، وتمضي بنا أنّى شاءت. ثمّة رياح خفيّة تعيش معنـا، في مكاتبنـا، تحت الوسـائد، وبـين الكتب، وفي الأبواب والنـوافـذ، وفي الـطرق والمقـاهي، ولا

نعرف متى تتحرّك وتهيج وتبعثر كلّ شيء. ثمّة طوفان دائم التدرُّج في مختبر المفاجآت، دائم الاستعداد لكي يشبّ ويهبّ ويتخرَّج. ثمّة من يدفعنا خارج بيوتنا، ومن يحاصرنا ويفرض علينا أن نعيش في مملكة أشباح وظلال.

من يقول إنّنا نتحرَّك فوق أرض صلبة؟ نحن في سفينة: ما تحت أقدامنا لجّة، وما حولنا صخور ووراءها صخور وراءها صخور. الأرض لنا، لكنّها لغيرنا. وهي تزلج تحت أقدامنا وتنزلق وتهوي.

* * *

هكذا نحيا كتلة بشريّة بلا شكل، سديماً إنسانيّاً أصمّ، والعلاقة التي يقيمها أحدنا مع الآخر، لا تنظّمها الحريّة بل العبوديّة. فأنا لا أقيم علاقة مع الآخر لكي أحرِّره، بل لكي استبعده. ونحن لا نعبّر عن أنفسنا وحياتنا إلّا بالمقنّنات والمحرّمات والمقدَّسات. نخاف من تفرّدنا، من فرادتنا، من وحدانيّتنا. كلٌّ منّا، هو كذلك: سديم بلا شكل، وإنسان بلا شكل، لا يقدر أن يعرف شيئاً خارج ذاته، ولهذا يحيا بعادة التكرار. يتكرّر ويكرّر حياته. والتكرار ليس حياة.

«لو أنّ هناك في المدينة حرّاً واحداً لما تهدّمت المدينة»، هذه صرخة قديمة: هذه صرخة جديدة. فالحريّة كالحياة حضور دائم - ولا تغيب الحريّة إلّا حين تكون الحياة غائبة.

ألسنا إذن، ونحن نساوم على الحريّة، قابلين طوعاً واختياراً، بأن ينغلق علينا العالم، ويأتي من يساوم على وجودنا، ومن يحتقر هذا الوجود، ويرفضه، ويقتله؟ ألسنا، إذ نقبل تجزيء الحريّة وتفتيتها، نمهِّد الطريق لمن يجزّئ وجودنا ويفتّته؟

* * *

كأنّنا لا نحيا حياة، بل نحيا موتاً يوميّاً أخرس.

كأنّنا لم نعد نستطيع أن نميِّز بين من يسرقنا ومن يحرسنا، أو بين الخيانة والأمانة. فللسارق سحر يظهر فيه بطلاً مُنقذاً، وللخائن سحر يظهر فيه قائداً عظيماً، وللأمين سحر يظهره لصّاً، وللحرّ سحر يظهره عبداً مأجوراً.

كأنّنا لم نعدْ نستطيع أن نفرّق بين من يدافع عن الحريّة ومن يهاجمها، بين من يطلقها ومن يخنقها، بين من يمجّدها ومن يسخر منها، بين من يرفعها منارة وراية ومن يدوسها بقدميه.

كلُّ شيء يختلّ ويتشوَّش. كلّ شيء يسمح لنا بالتساؤل: هل الموت عندنا هو، حقّاً، موت؟ هل الحياة عندنا هي حقّاً حياة؟

ولا عودة إلى الصحّة إلّا بالبدء من الحريّة، حيث يبدأ كل شيء.

٢ - الأمارة الثانية هي الخلق - الفعل، ، هي التغيير.

أكثر من أيّ وقت مضى، يجابه المفكّر العربي سؤالاً في مستوى مصيره. ما هو دوره في إحداث التغيير العربي وقضاياه وآماله؟ هل يبقى بعيداً: ينسحب فيسكن في «فراغ» العزلة، أم يتعالى فيسكن في «فراغ» المستقبل؟ أم ينخرط في التاريخ ويقوده ويغيّره؟

هذه الأسئلة قديمة. لكنّها، اليوم، تشحن حياتنا وتصرخ في وجوهنا، وتنزل في ضمائرنا مثقلة بالعالم والتاريخ، بمعنى جديد آخر. ذلك أنّ التغيّر الجاري يؤكِّد لنا يوماً بعد يوم أنّ قضيّة الصراع الذي يخوضه العربيّ تتجاوز الإطار السياسيّ القوميّ إلى ما هو أبعد وأعمق - إلى الإنسان ذاته في حقيقته الكيانيّة الأخيرة. فهي أوسع من أن نظر إليها من خارج، على سطح التاريخ. ولئن كان السياسيُّون ينظرون ويعملون من هذه الناحية السياسيّة القوميّة فإنّ على المفكِّرين دوراً آخر هو الكشف عن الدلائل والمعاني الحضاريّة.

لكنّنا لا نستطيع أن نعيد خلق العالم، أن نقود التاريخ، ما لم ندخل فيه، ما لم نعشه لحظة لحظة. بل إنّنا لا نستطيع أن نكون أحراراً، إلّا بدءاً من الانخراط في حركة التاريخ. كاتب يتشرنق لا يمكن أن يكون حرّاً. وإن ظنّ أنّه حرٌّ، فحريّته هذه ليست من فعله، بل من عطالته. ليست مجبولة بنبضه، بشهيقه وزفيره. وإنّما هي خرقة مزركشة. إنّها حرّيّة اللاّفعل.

الذين يرتضون هذه الحرّيّة يعيشون «مصنوعين» «مجروفين»، في حريّة الورقة التي تدحرجها الرّيح، والعمود الذي ينغرس في اليباس، والحصاة المطروحة في استرخاء أبديّ. فحين «ينسحب» الكاتب من حركة التاريخ ينسحب من ذاته: يعيش في جلدته بين ثيابه والغبار.

اليوم يُتاح للخلاّقين العرب أن يعيشوا حياة رؤياويّة خارقة. كلّ شيء حولهم يزلزل حواسهم، ويشنّج العالم في أعماقهم، ويؤكّد على الفعل. ثمّة كهرباء روحيّة يندر مثيلها، تسري في حياتهم. ثمّة أسباب يندر مثيلها، تقودهم إلى أن يعيشوا مغامرة الإبداع الحقيقيّة: الوحدة بين الفكر والعالم. إنّ الثورة، على المستوى السياسي والقومي يجب أن تتبطّنها وتقودها الثورةُ على مستوى الإبداع والفكر..

الخلاّق يقود الفعل. المشاركة في الفعل طاقة عاديّة. القيادة طاقة غير عاديّة. كل خلاّق قائد - طاقة غير عادية. إنّ جوهر الفنّ الإنسانيّ، الإنسانيّ حقّاً، هو تخليص الإنسان من آليّة الزمن والموت. أعني، بعبارة ثانية، هو الانخراط في التاريخ. التاريخ فعل

الإنسان، والزمن قوّة غُفْل. الذين يرفضون التاريخ، يسقطون في الزّمن - هاوية الغفل واللاّشيء.

اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، يدعونا التاريخ. الفنّ ذاته ليس، اليوم، علمَ الجمال الشكليّ، بل هو علم الدلالة - دلالة التاريخ والمجتمع والحقيقة والكون. وفي مجتمع بلا دلالة، لا يمكن أن يحيا الفرد إلاّ حياة بلا دلالة.

* * *

٣ - الأمارة الثالثة هي خرق العادة. هذه، بخاصّة، ميزةُ المبدع، ميزةُ الشاعر - بالمعنى الواسع الشامل. فالشعر هو، جوهريّاً، خرق العادة.

فلنخرق العادة، نحن الشعراء، في هذا الوقت:

وقت العربي المحروم المظلوم المضطهد المستعمَر؛

وقت الوقوف على عتبة كوكب آخر؛

وقت الحريّة التي تتحوّل إلى سجن؛ والسجن الذي يصير حياة؛

ولنعلن تغيير الإنسان العربي، ولنعلن الشعر.

* * *

أ - كلّ إبداع مخاطرة. كلّ إبداع حرب. والمبدع محارِب: يحاربُ الآخر، والمؤسّساتِ والجمودَ، ونفسَه وبقدر ما يجرؤ ويقتحم، يدخل في الخطر، يدخل في منطقة الإبداع.

غير أنّ الإبداع الحقيقيّ هو المغامرة في العالمَيْن الداخليّ والخارجيّ. فهذان العالمان وحدة لا تتجزّأ، بل إنّنا، اليوم، نستشعر الحاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى المغامرة في العالم الخارجيّ واقتحامه. فهو، حولنا بنوع خاص، عالمُ جمود وطغيان واستعمار واستغلال وحيلولة دون الحريّة والكرامة، ودون الإنسان في تحقيق إنسانيّته. نحن في حاجة ملحّة إلى أن نحارب هذا العالم وأن نفضح وحشيّتَه وشراستَه وقبحَه وحيوانيّتَه.

كيف يستطيع الفنّان أن يرضى عن مثل هذا العالم؟ كيف يرضى بأن يتوظّف عنده مهرّجاً يُنشده ويُطربه؟ كيف يستطيع أن يسدّ أذنيه دون صرخات العذاب والجوع؟ أن يزيّن القصور وينسى الأنقاض والسجون؟ إنّ الخيانة الكبرى لقضيّة الإنسان لا تتمثّل في الطاغية أو المستعمر أكثر ممّا تتمثّل في الفنّان الذي يسكت عن الطاغية المستعمر أو يهادنه، أو يعيش في الريش والحرير حيث لا وجود لغير المعذَّبين، ولغير العذاب والفقر والعبوديّة.

مثل هذا العالم سجن. ومهمّة الفنّان الأولى هي أن يقّوض جدرانه.

* * *

ب - «في البدء كان الكلمة»: في البدء كان الشعر. الشعر يتقدَّم الفعل (العمل). الشعر البرق، وما يأتي بعده الفعل. لكنّهما معاً وجها العالم.

ولأنّ الشعر بداية، يجب أن نبدأ أوّلاً بقتل الشعر - النبي الدجّال: الشعر الذي يصف، الشعر الذي يصنع ويصوغ ويلعب، شعر السَّرد والتعليم والتخليق والتسييس والتثقيف والتفسير والتحليل والتمذهب والترسّل، - ذاكرين أنّه لن يكون الشاعر العربي شاعر النصف الثاني من القرن العشرين ما لم يكن، في الوقت ذاته، على طريقته وبحسب استعداده، متديّناً، ملحداً، سياسيّاً، عالماً، فيلسوفاً، قائداً، نبيّاً؛ ما لم يكن كونيّاً.

نبدأ بقتل النبيّ الدجّال من أجل أن يقوم الشعر - البداية،

شعر الحضور الخلاّق المغيِّر،

الشعر الذي يتقدّم سيْر الإنسان،

الشعر الذي يفجّر الفعل - يكون فعلاً.

* * *

ج - هذا الشعر - البداية لا يخلقه غير الشاعر - البداية، أي الشاعر الذي يكون، في حدسه وحساسيّته ورؤياه، إنساناً جديداً.

ومن هو الإنسان العربي الجديد؟ هو الحرّ، الخلاّق، الفاعل، خارق العادة: يتجاوز الماضي، ويعانق الحاضر فيما يقف على عتبة المستقبل. خارق العادة ثائر، بالطبيعة. الشاعر ثائر بالطبيعة. فليس شاعراً من ليس ثائراً. لا الثورة - النظام التي تأسر الواقع وتحكمه، بل الثورة - الرؤيا التي تحرّك الواقع وتغيّره. ثمّ تعود فتحرّك ما حرّكته، وتغيّر كلّ ما غيّرته، أبديّاً، بحيث يصبحُ الشعرُ عملاً آخر والعملُ شعراً آخر.

وكما أنّ الشاعر والثائر واحد، كذلك الشعر والثورة واحد. الثورة فعل برؤيا، والشعر رؤيا بفعل. معاً يوقظان الحاضر ويقودانه إلى عناق ما يأتي.

* * *

د ـ ما يأتي، أي ما يتطلّع إليه الشاعر، هو إنسانيّة عادلةٌ، مبدعة، حرّة؛ هو الإنسان الّذي يعيد ابتكار كلّ شيء فيما هو يمدّ جذوره في الآتي. والآتي لانهائي. فليس شاعراً من ليس لانهائيّاً.

وفي هذه البقعة العربيّة كثير ممّا يغذّي فينا هذه اللانهائيّة. فهي، في الأصل، أرض ولادة ونبوّة، يتحدّث أبناؤها مع الله وجهاً لوجه. فالإنسان فيها مسكون فطريّاً بما وراءها، بالغيب. المعلوم عنده عتبة لغير المعلوم، والنهاية مدخل إلى اللانهاية. إنّه بطبيعته مرشوق نحو الأبعد الأكثر غيباً، مشدودٌ إلى الجانب الخفيّ الآخر من هذا العالم. فهو يؤمن، بالفطرة، أنّ حياته الجارية ليست إلّا جزءاً باهتاً يسيراً من الحياة.

بهذا تتمّ الوحدة بين الواقع والممكن، الزمني وما فوق الزمني، الشيء والخيال. وبهذا يتمّ تخطّي الثنائيّات نحو تركيب وجوديّ آخر تتوحّد فيه حيويّة الإشراق أو المعرفة، بحيويّة الإبداع أو العمل.

* * *

هـ ـ ليس شاعراً، إذن، من لا يكون تغيير العالم في أساس حَدْسه الشعريّ. فكما ينسلخ الشاعر من نفسه لكي يجد نفسه، كذلك يهيّئ للعالم أن ينسلخ من نفسه لكي يجد نفسه. فالعالم جسدُ الشاعر: لا يستطيع إلّا أن يحرّكه، إلّا أن يغيّره. وحين لا يفعل يكون ميّتاً: فليس شاعراً عربيّاً من لا يكون ثائراً ـ منغرساً في حياته العربيّة من أجل أن يغيّرها، أن يتخطّى أشكالهاالهرمة، ويخلق لها أشكالاً جديدة.

كلّ شيء في الحياة العربيّة للموت والقيامة: البيت، العائلة، المدرسة، الكنيسة، الكتاب، الحبّ، الحريّة، العدالة، الإنسان، الشعر، . . .

ليس شاعراً من لا يعلن هذا الموت، مبشّراً بالقيامة. لكن يبدو أنّ حياتنا هي من العفن والتحجّر بحيث لا تستحقّ نعمة الموت. كأنّها لم تعرف الحياة. وكيف يموت من لا يحيا، أو كيف يحيا من لا يموت؟

وكأنّ مرض حياتنا الأعظم هو في أنّها لا تريد أن تموت، بل تريد أن تبقى متأرجحةً في هذه اللحظة الواقفة بين الحياة والموت. فليست الحياة عندنا حياةً ولا موتاً، بل عادة. والعادة تتحوّل إلى مملكة. ولهذه المملكة قوانين ومفاييس، وإلزام وجزاء. فيها يلتغي العمق والبعد، وتنفتح هوّة بين النفس والجسد، الباطن والظاهر، الإنسان والإنسان، الإنسان والغيب. ويتحجّر، معاً، الإنسان والله.

لننظر، مثلاً، إلى تراثنا بما فيه من قيم دينيّة وغير دينيّة. نحن في الواقع بعيدون عنه، فكراً وتطبيقاً. كأنّنا إذن غير مؤمنين به. مع ذلك، لا نفكّر إلّا به وفيه. نفكّر به وفيه كما لو أنّنا نريد أن نحافظ عليه إلى الأبد. ثمّ إنّنا نعيش حياتنا اليوميّة كما لو أنّنا نمقته ونريد أن يزول إلى الأبد. إنّه طريق تجاوزناها، لكنّنا نسير عليها باستمرار.

ليس شاعراً في حياتنا من لا يعمل على موت حياتنا هذه، من أجل أن تحيا. ليس شاعراً من لا يموت، هو كذلك، من أجل أن يحيا، فيخلق، ويهيّئ لنا السكنى في مملكة الانبثاق والإشراق، حيث نتحرّك، ووجهنا إلى الغيب، في مدّ إشعاع وتوتّر.

* * *

الشعر العربي بامتياز هو، اليوم، شعر التوتّر الخارق بين الأطراف. ففي هذا التوتّر علامة الاستقصاء الأغنى والأقصى. وفيه دعوة إلى أن يكون الشعر تجربة كلّيّة تتعانق فيها الشهادة بالموت والشهادة بالنطق: تجربة تتخطّى تناقضات الفكر والحياة معاً، وتكون بشارة خلاص من الوضع الإنساني الميّت، ـ بشارة بنهاية الإنسان القديم من أجل ولادة إنسان جديد آخر، يكون الطبيعة وما وراءها/ الحضور والغيب في آن.

ذاكرة الآداب ـ ٥ ـ : عز الدين المناصرة